

## التعليم وتأسيس منظومة القيم

■ أحمد زايد

### مقدمة

المنظومة التعليمية هي أحد المكونات الأساسية في المنظومة التربوية الكلية في المجتمع، والتي تضم الأسرة والمؤسسات التعليمية: (المدارس والجامعات) ووسائل الإعلام. ويطلق بعض علماء الاجتماع - خاصة من ذوي الميول الوظيفية - ويمكننا أيضاً أن نطلق على هذه المنظومة التربوية الكبرى: منظومة (نسق) تكوين الالتزام. ويعني ذلك أن المهمة التي يقوم بها هذا النسق التربوي تكمن في نقل التراث الثقافي إلى الأجيال الجديدة، ومن ثم الإسهام الفعّال في التكوين الثقافي والاجتماعي للمواطنين؛ بحيث

■ أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة.



يخرجهم إلى المجتمع وقد أصبحوا أفراداً قادرين على أداء الأدوار المنوطة بهم وفق أعلى درجات الالتزام الأخلاقي. وتعد المنظومة التعليمية (أو نسق التعليم) أحد المكونات الجوهرية في هذا النسق التربوي، بل يمكن القول: إنها المنظومة الأساسية بعد الأسرة، وربما قبل الأسرة في بعض المجالات.

وتحاول هذه الورقة أن تستكشف الدور الذي تلعبه المؤسسات التعليمية (في المدارس والجامعات) في التكوين القيمي الأخلاقي في المجتمع. لن نحاول هنا أن ندخل في محتوى المناهج التعليمية وما تحمله من مضامين قيمية، وإن كانت الإشارة إليه وتأكيد دوره في تشكيل القيم يعد أمراً مهماً، وعضواً عن ذلك فإننا سوف نسعى إلى إبراز العلاقة بين أهداف التعليم وبين تكوين القيم الأخلاقية، ثم نحاول أن نلقي الضوء على أهم القيم الأخلاقية التي يرسى دعائمها التعليم، وأخيراً نعرض على درس بعض الآليات التي من خلالها تنتقل هذه القيم عبر المؤسسة التعليمية سواء في التعليم العام أم التعليم الجامعي. لن نميز هنا بين تعليم قبل جامعي وتعليم جامعي، على اعتبار أن القيم هي منظومة عامة، ولا يمكن أن نفصل بين قيم يمكن تكوينها في الصغر وأخرى في مرحلة الشباب. صحيح أن النمو البيولوجي يصاحبه نمو أخلاقي، وأن أنواعاً معينة من القيم الأخلاقية تغرس بعد أن يكون المرء قد قطع شوطاً من سني حياته. كل ذلك صحيح، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بالقول بأن قيماً بعينها يمكن أن تخص المراحل التعليمية المختلفة. ومن هنا فسوف نلتزم بالحديث عن التعليم وتأسيس منظومة القيم على نحو عام، مع الإشارة إلى الخصوصية التربوية حال أن تطل برأسها عبر النص.

## أولاً - التعليم والالتزام الأخلاقي:

ثمة ضرورة في البداية لتعريف مفهومين: القيم الأخلاقية، والالتزام الأخلاقي. تفهم القيم الأخلاقية في هذه الورقة بمعنى واسع النطاق على أنها ضوابط يمكن في ضوئها أن نميز بين الصواب والخطأ؛ بين السلوك الفاضل وغير الفاضل، وهي تنتشر في كل مجالات الحياة العامة والخاصة، وفي كل الحقول المهنية<sup>1</sup>. أما مفهوم الالتزام الأخلاقي فإنه يعني الارتباط بمجموعة من المبادئ أو القيم الأخلاقية

يعدّ الالتزام الأخلاقي  
أساساً لنهضة الأمم  
ورقيها فثروة الأمة  
لا تقاس بما تمتلكه من  
رصيد مادي، بل تقاس بما  
تمتلكه من رصيد أخلاقي

في أداء السلوك. وكثيراً ما يشار إلى مفهوم الالتزام الأخلاقي من خلال القدرة على تحقيق ما يسمى التكامل الأخلاقي أو التوازن الأخلاقي أو النزاهة الأخلاقية Moral Integrity ؛ أي القدرة على الاتساق الأخلاقي والتوازن بين السلوك الفعلي وبين ما يعلنه الفرد من مبادئ أخلاقية؛ بحيث يظل الفرد في حالة

سلام دائم مع النفس. ويقترح بعض الباحثين معايير لقياس القدرة على التكامل الأخلاقي، من أهمها القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، أو ما يسمى بالتمييز الأخلاقي؛ والاتساق السلوكي؛ أي القدرة على السلوك وفقاً لطبيعة القناعات الشخصية، والتبرير العام؛ أي القدرة على إعلان المبادئ التي يقتنع بها الشخص والتي يتوصل إليها من خلال التأمل الذاتي والتقييم الذاتي<sup>2</sup>. ويعدّ الالتزام الأخلاقي أساساً لنهضة الأمم وراقيها، فثروة الأمة لا تقاس بما تمتلكه من رصيد مادي،

1- انظر: مقالنا حول «مصادر الأخلاق الفردية والجماعية»، ورقة مقدمة إلى ندوة القيم

الغُمانيّة ودور المواطن في التنمية، في الفترة من 4 إلى 6 إبريل 2011.

2- انظر: S.Canter, Integrity, New York: Basic Books, 1996.



بل تقاس بما تمتلكه من رصيد أخلاقي، ومن وجود أعداد كبيرة من المواطنين الشرفاء الفضلاء الذين يرون الحق حقاً والباطل باطلاً. وأسوأ ما تصاب به الأمة هو أن تصاب في أخلاقها.

وإذا ما قابلنا بين مفهومي القيم الأخلاقية والالتزام الأخلاقي - أو النزاهة الأخلاقية - لوجدنا أن الطريق إلى الالتزام الأخلاقي هو تمثيل القيم الأخلاقية. ولا يتم هذا التمثيل من خلال أساليب قهرية؛ ولكنه يتم من خلال نزوع نفسه إلى الفضيلة والعيش المشترك مع الآخرين، فالأساس في تكوين التعاقد الاجتماعي بين الأفراد ليس القهر؛ ولكنه النزوع إلى الاجتماع، فالفضيلة كما يتحدث عنها أرسطو في كتاب «الأخلاق» هي عادة واستعداد راسخ مكتسب لتجنب التطرف والغلو، والمحافظة على «الوسط الصحيح» في كل شيء<sup>1</sup>. كما أكد كانط مبدأ الواجب الأخلاقي على أنه مبدأ له وجوده الفعلي في العقل الخالص، الذي يجعل منه قانوناً أخلاقياً يفرض نفسه على الضمير البشري كواجب أخلاقي يلتزم به كل فرد. وهذا الالتزام هو الذي يجعل الأخلاق غاية السلوك؛ أي التعامل الإنساني كغاية في حد ذاته. ويختار الأفراد هذا المبدأ الأخلاقي بمحض إرادتهم، فالحرية هي شرط الحياة، وعندما تتأسس الحرية على مبدأ أخلاقي فإنها تتجاوز حرية الفرد إلى حرية الآخرين وإلى المحافظة على الحياة، كما تتمثل في المحافظة على الجسد والآخرين والمجتمع بعامة<sup>2</sup>.

1- أرسطاطاليس، علم الأخلاق، ترجمة: أحمد لطفي السيد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008.

2- عرض كانط لنظرية الواجب الأخلاقي في الكتاب التالي: أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة وتعليق: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1970.

ولقد سبق المجتهدون الكبار من علماء المسلمين إلى ترسيخ هذا المبدأ الأخلاقي - أعني: مبدأ الواجب الأخلاقي - عندما أكدوا على الكليات الفقهية العامة التي تنظر في مقاصد الشرع بوصفه السبيل إلى حفظ حياة الإنسان: حفظ دينه ونفسه وماله ونسله وعقله. والأصل في علم المقاصد هو البحث في مصلحة الأمة، ودرء المفسد عنها، فكل شيء يخرج عن المصلحة إلى المفسدة ليس من الشرع، ولذلك فإنه يسعى إلى تحقيق مبدأ أخلاقي أشمل، وهو المحافظة على الإنسان والمجتمع. فكل شيء يخرج عن المصلحة إلى المفسدة إذا لم يراع القواعد الأخلاقية التي تقتضيها المقاصد الشرعية<sup>1</sup>.

وخلاصة القول في كل هذه المعاني الفلسفية والدينية أن المجتمعات تنهض بالعمل الذي يرتبط بالواجب الأخلاقي ومراعاة المصالح العليا للمجتمع. ويمكن القول - بناءً على ذلك - : إنه كلما زاد الالتزام الأخلاقي والتكامل الأخلاقي ازداد الارتباط بالواجب الأخلاقي، واندفع المجتمع إلى الإنجاز والتقدم. ولا شك أن البشر لا يولدون وهم يحملون هذا الالتزام الأخلاقي في داخلهم. صحيح أنهم يولدون مفظورين عليه، ولكنهم عبر مسيرة حياتهم يمكن أن يجيدوا عنه، وينصرفوا إلى ما عداه من ضروب السلوك. وهنا تأتي أهمية مؤسسات تكوين الالتزام، وعلى رأسها المؤسسات التعليمية. فالتعليم هو الأداة التي يكتسب من خلالها الأفراد المعارف والمعلومات، وكذا المهارات التي تجعلهم على أعلى مستوى من الحذق في أداء العمل، وهو الأداة التي تسهم في التكوين الأخلاقي والحضاري للبشر.

1- انظر حول مقاصد الشريعة: يوسف القرضاوي، دراسة في فقه مقاصد الشريعة، دار الشروق، القاهرة، 2007.



وقد أكد المربون وعلماء التربية هذه الحقيقة عبر التاريخ، وتاريخياً نستطيع أن نأخذ أمثلة ثلاثة على تأكيد أهمية التعليم في التكوين الاجتماعي والأخلاقي للأفراد، ومن ثم الإسهام في تكوين منظومة الالتزام:

**الأول:** من ابن خلدون الذي نظر إلى التعليم على أنه صناعة مستقلة بذاتها، وإذ يكون التعليم صناعة مستقلة فإنه يفترض أن يقوم على أسس، وهو يلعب دوراً في تدبير الحياة أو المعاش وفي تحقيق العمران. ويهدف التعليم عند ابن خلدون لا إلى «حشو الأذهان»؛ ولكن إلى تنمية الملكات التي تجعل الإنسان قادراً على العلم والمناظرة والتفاوض. ولذلك فإن التعليم يجب أن يقترن بالحرية في طلب المعرفة، وانصياع المعلمين إلى مبادئ الصناعة وقوانينها، والتي يأتي على رأسها الامتناع عن العقاب البدني الذي يضيق على النفس انبساطها، ويذهب بنشاطها، ويحمل على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في الضمير، وتعلم المكر والخديعة، بحيث تصير هذه «عادة وخلقاً» وتفسد «معاني الإنسانية» التي هي أساس الاجتماع والتمدن<sup>1</sup>. إن ابن خلدون هنا يضمن نصه الرائع رسالة مهمة مفادها: إذا صلح التعليم صلحت الأخلاق، وتبلور الأساس الأخلاقي للتمدن والاجتماع الإنساني.

**والثاني:** جان جاك روسو وهو صاحب إسهام هام في التربية، التي تهدف إلى تكوين المواطن الأخلاقي، أو المواطن الصالح، فالتربية تهدف إلى أن تحل الذات الجماعية داخل الأفراد محل الذات الفردية، ومن ثم يصبح الفرد قادراً على إعلاء المصلحة الجماعية للمجتمع،

1- انظر: عبد الرحمن بن خلدون، «المقدمة»، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب - الدار البيضاء، 2005م.

والعمل من أجل تحقيقها، وتلك الغاية الكبرى للقيم الأخلاقية والالتزام الأخلاقي. ولقد قدم روسو نموذجاً على التربية الأخلاقية من خلال كتابه الشهير بعنوان «أميل: عن التربية»، وهو نموذج يقوم على فكرتين مهمتين: الحرية في التعليم وفقاً للميول الشخصية، والهدف الأسمى للتربية هو تحويل الشخص إلى فرد أخلاقي فاعل في المجتمع<sup>1</sup>.

إن ابن خلدون يضمن  
نصه الرائع رسالة مهمة  
مفادها: إذا صلح التعليم  
صلحت الأخلاق، وتبلور  
الأساس الأخلاقي للتمدن  
والاجتماع الإنساني

والثالث: رفاة رافع الطهطاوي، الذي خلص إلى فلسفة تربوية في كتابه «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين». لقد كان الطهطاوي يؤمن إيماناً راسخاً بأهمية المواطنة كقيمة أخلاقية، فلما يتحول الفرد إلى مواطن لا بد أن يكون منقاداً لقانون الوطن ومعيناً على إجرائه، وفي المقابل فإنه

يتمتع بالحقوق المدنية والمزايا البلدية. ولتحقيق جوهر التعاقد هنا فإن على المواطنين التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناء ثروته. وتكتمل المواطنة بقيم أوفى ركز عليها الطهطاوي في خطابه الإصلاحية كالعقل والحرية والمساواة<sup>2</sup>. ولذلك فإن كتاب «المرشد الأمين» يُعد وثيقة تربوية وأخلاقية قدم فيها الطهطاوي لأهمية التربية والتعليم وأهمية المساواة بين البنين والبنات في العملية التربوية. وقدّم الطهطاوي في الكتاب نموذجاً تربوياً أقرب إلى ما يسمى اليوم بالتعليم الشامل الذي يهدف إلى التكوين

1- انظر: كتاب جان جاك روسو، أميل أو التربية، ترجمة عادل زعيتير، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1956م.

2- أحمد محمد سالم، «الخطاب الإصلاحية عند رفاة الطهطاوي» مجلة التسامح، العدد العاشر، السنة الثالثة، ربيع 2005، ص 97-116.



الكلي للنفس البشرية. ولقد بدأ الطهطاوي كتابه بالحديث عن دور التعليم في محو محبة النفس من الأطفال لإعدادهم ليكونوا مواطنين، وتعويد الأطفال على العقائد الدينية، وتعليمهم أحوال المعاش، وغرس مفاهيم المساواة والوطنية في نفوسهم. وأهم من ذلك كله أن الكتاب يقدم مفهوماً للتربية أشمل وأعم من المفهوم القديم، فالتربية هي بناء الجسم والعقل والصحة والأخلاق والدين، وأن المعارف التي يحصل عليها الفرد لا بد أن تكون شاملة لعلوم الدين والفنون والصنائع المختلفة والعلوم الطبيعية<sup>1</sup>.

ولقد استشعر علماء التربية في العصر الحديث أن ثمة ميلاً كبيراً نحو التخلي عن القيم، وأن الحياة المدنية - التي سمعنا أصداءها في كتابات الفلاسفة ورجال الدين - تبدو مهددة باضمحلال أخلاقي. ومن هنا جاء تأكيدهم على أهمية أن يكون التعليم أداة للتكوين القيمي الأخلاقي، ومن ثم القدرة على التواصل المدني في المجتمع الحديث. ومن هنا جاء التأكيد على مفهوم «التعليم الشامل» أو «التربية الشاملة»، والذي يشتمل على تعلم المعارف والعلوم، وتعلم حقائق الحياة وقيمها الإنسانية أو الأخلاقية. إنه تعليم من أجل الحياة؛ أي من أجل تكوين المواطن الذي يعرف نفسه، ويعرف الآخرين ويعيش معهم وبهم؛ كما أنه تعليم يراعي التكوين الشامل للفرد بجوانبه الجسدية والروحية والثقافية والمعرفية<sup>2</sup>. ولقد أدى هذا الاهتمام إلى تخليق فلسفة جديدة

1- انظر: الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973، خاصة الصفحات 275 وما بعدها، والباب الثالث من كتاب «المرشد

الأميين في تعليم البنات والبنين» حول التعليم والتعلم، ص 285 وما بعدها.

2- أصدر رون ميللر Ron Miller مجلة التعليم الشامل Holistic Education Journal، والتي أصبح اسمها في العام 1987م Encounter: Education for Meaning and Social Justice.



للتعليم الذي يهدف إلى تعميق الالتزام الأخلاقي عبر مسيرة التعليم المدرسي والجامعي. بل إن هذه الفلسفة قد ولدت أشكالاً مختلفة من التعليم، ولقد تعددت هذه المجالات واتسعت، واتخذت مسميات عديدة منها التعليم البديل، والتعليم العولمي، والتعليم الديمقراطي، والتعليم المنزلي، والتعليم المدني، والتعليم للمواطنة، والتعليم الموجه بالقيم. وثمة تداخل كبير بين هذه المسميات، ولعلنا نختصرها جميعاً في ثلاثة أنماط رئيسة:

(1) **التعليم الموجه بالقيم Value-Oriented Education**: وهو التعليم الذي يتجه في مضمونه وطرق تعليمه إلى غرس قيم الحب والتسامح والعدل وكل الفضائل النبيلة، سواء أكانت فضائل فردية أم وطنية أم إنسانية عامة. ولقد أصبح هذا النوع من التعليم أكثر قبولاً في العالم المعاصر تحت وطأة العولمة، وثقافة الاستهلاك، وانتشار الروح الفردية والعنف، وانتشار الإرهاب ومظاهر عدم التسامح بين الشعوب. ويميل التعليم الموجه بالقيم إلى التركيز على تكوين المناهج الدراسية في ضوء توجه قيمى أخلاقي، وكذلك إلى تكوين المدرسين تكويناً قيمياً وأخلاقياً، وتطوير أساليب تدريسية توجه التلاميذ إلى قيم روحية وعملية، مثل حب التلاميذ على الإبداعات الأدبية والفنية، وتنمية صور التفاعل والتعاون بين التلاميذ<sup>1</sup>.

(2) **التعليم من أجل المواطنة**: وهو نمط خاص من التعليم لا يهدف بالضرورة إلى التركيز على نمط خاص من المواطن الصالح أو المواطن النشط، ولكنه يمكن التلاميذ والطلاب من فهم مجتمعهم

1- انظر حول التعليم الموجه بالقيم: E. N. Gawande, Value Oriented Education: Vision for Better Living, New Delhi: Sarup and Sans, 2002.



ووظائفه السياسية والاجتماعية والإسهام في تكوين مواطنين قادرين على المشاركة، واتخاذ القرارات السليمة، فيما يتعلق بحياتهم أو العلاقة بمجتمعهم، والشعور بالمسؤولية تجاه النفس والآخرين والمجتمع. ويهدف هذا النوع من التعليم أيضاً إلى إكساب الوعي بالحقوق والواجبات، وبعبارة بسيطة أن يتحول الشخص الذي يتلقى هذا النوع من التعليم إلى مواطن فاعل ومشارك يتحلى بالثقة بالنفس والإسهام الإيجابي في المجتمع. ويمكن أن يقدم هذا النوع بشكل مستقل في مناهج مستقلة، كما يمكن أيضاً أن يقدم بشكل غير مباشر في مناهج التعليم المختلفة في المرحلة الجامعية وقبل الجامعية<sup>1</sup>.

(3) التعليم المدني Civic Education: وهذا نوع ثالث من التعليم أشبه بالتعليم من أجل المواطنة، وهو يرمي إلى تزويد الطلاب بالثقافة المدنية، التي بمقتضاها يتحولون إلى أفراد ذوي قدرة على التواصل مع الآخرين وعلى تبني قيم أخلاقية للحياة المدنية (التسامح، الجمعية، والعيش المشترك، والتعاون، والثقة بالآخرين، وكل المكونات التي تجعل الإنسان فاعلاً اجتماعياً إيجابياً وخلاقاً وقابلاً للتعددية). ورغم أن التعليم المدني يتأسس على فلسفة حقوقية / قانونية تؤمن بالمساواة والحرية بين المواطنين؛ فإنه يرتبط أيضاً بفكرة التعددية. فأحد الأهداف الرئيسية للتعليم المدني في المجتمع الديمقراطي - على ما يذهب بعض الباحثين - هو تدعيم قضية التعددية الثقافية والدينية والتي بمقتضاها يستطيع سكان المجتمع أن يتوصلوا إلى قيم أخلاقية مشتركة يعيشون في ظلها دون أن تطمس صور التعدد الثقافي والديني والإثني بينهم. ويلعب التعليم بطبيعة الحال دوراً رئيساً في تكوين هذا

1 - انظر: Denis Lawton, Jo Cairns and Roy Gardner, Education for Citizenship, Continuum International Publishing Group, 2005.

الإجماع السياسي والثقافي عبر نقل القيم الأخلاقية التي تقوم عليها الحياة المدنية<sup>1</sup>.

ولعلنا نكون بهذا التحليل قد وصلنا إلى قناعة بأن التعليم في المجتمع المعاصر يتجاوز كثيراً الأفكار التربوية التقليدية حول اكتساب المعرفة ومهارات الفهم والتحليل والتركيب، إنه عملية يتم بمقتضاها إدخال الفرد في منظومة الحياة، والتخلي عن الأنانية والنزعة الذاتية، والتوافق مع قيم المجتمع ومعاييره الأخلاقية، ومنح الفرص المتكافئة للجميع لتوسيع آفاق الحياة الفكرية والوجدانية.

## ثانياً: القيم الأخلاقية في المنظومة التعليمية:

إنّ التعليم من أجل  
المواطنة يهدف أن  
يتحول الشخص الذي  
يتلقى هذا النوع من  
التعليم إلى مواطن  
فاعل ومشارك يتحلى  
بالثقة بالنفس والإسهام  
الإيجابي في المجتمع

إذا كان هدف التعليم هو إدماج الأفراد في حياة المجتمع وغرس القيم الأخلاقية على ما أوضحنا، فماذا عسى أن تكون القيم الأخلاقية التي يرجى من التعليم أن يغرسها. لقد بذل التربويون وعلماء الاجتماع جهوداً لإيضاح طبيعة هذه القيم والدور المنوط بها في الحياة الاجتماعية. ولعلنا في هذا الجزء من الورقة نستطيع أن نلقي ضوءاً على هذه القيم.

### 1 - الجدارة (الاستحقاق) Meritocracy

يذهب علماء الاجتماع إلى أن التعليم يسهم - عبر دوره في نقل ثقافة المجتمع والإسهام في تدعيم الالتزام الأخلاقي - في تأمين

S. Macedo, Diversity and Distrust: Civic Education in Multicultural Democracy, Cambridge: Mass., Harvard University Press, 2000.

1 - انظر:



الاستقرار الاجتماعي والمحافظة على النظام العام، والعمل في الوقت نفسه على دفع هذا النظام إلى الأمام ليحقق الأفراد فيه أعلى مستويات الإنتاجية والإنجاز. وإذ يسهم التعليم في ذلك فإنه يعمل على تحقيق قدر من توجيه الأهداف المتفرقة نحو هدف واحد هو الصالح العام للمجتمع، هنا تتحول التعددية إلى تعددية خلاقة وإلى تنوع خلاق يصب في إجماع اجتماعي وثقافي على أهدافٍ عليا ومرامٍ أخلاقية عليا.

ويتوقع أن يتم ذلك في ضوء قيمة إنسانية عامة هي العدل والمساواة. ويقدم النظام التربوي في المدارس والجامعات تدريباً قوياً ومكثفاً - وعلى نحو غير مباشر - لإرساء قيمة العدل والمساواة عبر اعتماد النظام التربوي على مفهوم الجدارة أو الاستحقاق، وهي قيمة في حد ذاتها تعبّر بنحو أو آخر عن العدل والمساواة. فالنظام التعليمي يتأسس على منح الجدارة أو منعها في ضوء الدرجات التي يحصل عليها الطلاب في امتحاناتهم والمهام التي يكلفون بها. ويحقق الفرد مكانة أو وضعاً معيناً داخل فصله أو مجموعته الدراسية، ويتم ذلك على نحو معلن وشفاف. ويؤدي ذلك إلى أن تتحول قيمة الجدارة أو الاستحقاق - ومن ثم قيمة العدل والمساواة - إلى قيمة راسخة في البناء النفسي والعقلي للتلاميذ. هنا تتحول المدرسة - كما يقول تالكوت بارسونز<sup>1</sup> - إلى مجسم مصغر للمجتمع مثلها مثل الأسرة. والمدرسة على هذا النحو تمثل جسراً يعبر من خلاله الفرد من الأسرة إلى المجتمع، محملاً بمبدأ الجدارة الذي يجعله يؤمن إيماناً راسخاً بتكافؤ الفرص بين الأفراد، ويصبح هذا المبدأ حاكماً لسلوكه، كما يصبح الفرد نفسه رقيباً على تطبيق هذا المبدأ من قبل الآخرين. ولن يطالب الفرد الذي

1 - J. H. Ballantine and J.Z.Spade, School and Society: A Sociological Approach to Education, 3rd. Edition, London: Pim Page Press, 2008.

يحمل بين جنباته إيماناً بمبدأ الجدارة بأن يحصل على شيء أكثر مما يستحق، وسيعطي للآخرين ما يستحقونه عن رضا.

ولتأسيس هذا المبدأ بُعِدَ آخر؛ إذ أنه يدفع الفرد بعد أن يترك المؤسسة التربوية، إلى أن يبذل قصارى جهده في العمل والإنجاز في أداء المهام (الواجبات) الموكلة إليه في المجتمع، ومن ثم فإنه يتحول إلى مواطن منجز وفعال، بل قد يتحول - من خلال نماذج الإنجاز والمبادرات التي يقدمها - إلى نموذج للآخرين، وهنا يصبح الفرد نموذجاً للفرد الأخلاقي الذي هو عماد المجتمع الحديث.

## 2 - الإنجاز Achievement

تعتمد العملية التعليمية على الإنجاز كأحد معايير الجدارة، وكذلك فإذا كان النظام التعليمي يفرس في الطلاب قيمة الجدارة والاستحقاق فإنه يفرس فيهم أيضاً قيمة الإنجاز. فالجدارة والاستحقاق يعتمدان اعتماداً كلياً على الإنجاز؛ فالتلميذ المنجز هو الذي يستطيع أن يحظى بأعلى درجات الجدارة والاستحقاق، ومن ثم فإن الطريقة التي يعمل بها النظام المدرسي تفرس في التلاميذ أهمية الإنجاز كقيمة شخصية واجتماعية. فالإنجاز المدرسي يعمل على بناء شخصية الفرد، ويحولها إلى شخصية باحثة بشكلٍ دائمٍ عن تحقيق الأهداف، فضلاً عن توجيه البناء الدافعي في الشخصية إلى النجاح والإنجاز الدائم، فالدافعية للإنجاز تجعل المتعلم يُقبل على التعلم والانتباه إلى الموقف التعليمي، والإقبال عليه بنشاطٍ موجه، والاستمرار فيه حتى يتحقق التعلم وبلوغ معيار الامتياز، وتتضمن هذه القيمة مكونين أساسيين هما الرغبة في النجاح والخوف من الفشل خلال سعي الفرد لبذل أقصى جهده وكفاحه من أجل النجاح وبلوغ الأفضل والتفوق على الآخرين. ومن ثم فقيمة



الإنتاج تُعدّ أحد المكونات الأساسية في الشخصية والتي تحدد مدى سعي الفرد ومثابرتة لتحقيق نجاح ما، والوصول إلى الأهداف التي يرنو إليها، والعمل برغبة وسرور للتغلب على كل الصعاب التي قد تواجهه. وترتبط بقيمة الإنتاج مجموعة من القيم الأخرى، التي تخلق في مجملها شخصية منجزة ومقدرة لذاتها وطموحة ومثابرة وقادرة على التحمل. فالشخص ذو الدافعية العالية للإنتاج هو شخص متكامل بحق مدرك لقيمة الوقت، وكاره لإهداره، وملتزمٌ بالعمل وبالكفاءة وبالإنتاج وبالميل إلى الثقة والإيمان بالقدرات التي خلقها الله فيه وبقدرته على تحقيق ذاته<sup>1</sup>.

والحقيقة أن الإنتاج كقيمة مجتمعية لها أهمية خاصة في أنها تعمل على تكوين مجتمع قوي، فالتلميذ الذي يكتسب قيمة الإنتاج عبر الدراسة الجامعية وقبل الجامعية قادر على أن يقدم لمجتمعه إنجازات كبيرة في مجالات عدة: في مجال أسرته، وفي مجال عمله، وفي مجال ممارسة مهنته كمهندس أو طبيب أو محامٍ أو أية مهنة أخرى. إن المجتمع يتحول عبر الإنجازات المتعددة لأفراده إلى منجز. إن مجتمع الإنتاج يكون مدفوعاً إلى تحقيق نهضة يشارك فيها كل أفراده، وهو مجتمع لا يعرف الكسل وتتضافر فيه العوامل الشخصية مع العوامل الثقافية والعوامل الاقتصادية لتحقيق النهضة الشاملة في المجتمع، في إطار منظومة لقيم الإنتاج والتقدم<sup>2</sup>. ولقد أوضحت وثيقة أصدرتها

1- انظر في قيمة الإنتاج في تحقيق الشخصية المتكاملة:

Lori L. Moore; «Using Achievement Motivation Theory to Explain Student Participation in a Residential Leadership Learning Community», Journal of Leadership Education, Volume 9, Issue 2 - Summer 2010, pp. 22- 34.

2- انظر الكتاب الكلاسيكي لديفيد ماكلياند:

D.C. MacClelland, The achieving society, Primstome: D.Van Nostrand, 6.

مؤسسة تنمية الأعمال الكندية حول مجتمع الإنجاز أن من شروط مجتمع الإنجاز أن «يتاح لكل تلميذ في كل مراحل التعليم تدريب على الأعمال المتصلة بتنمية المهنة، وأن يطبق هذه الأعمال بدرجة عالية من المسؤولية»<sup>1</sup>. وتدل هذه العبارة على أن التعليم هو الوسيلة التي من خلالها يكتسب الفرد مهارة القدرة على التطوير الدائم؛ أي القدرة على الإنجاز، وأن هذه القدرة هي أحد الركائز المهمة في تحقيق مجتمع الإنجاز. ولا تقع المسؤولية على التلميذ فحسب، بل على المدرس أيضاً.

**إن التعليم هو الوسيلة التي من خلالها يكتسب الفرد مهارة القدرة على التطوير الدائم؛ أي القدرة على الإنجاز**

فقد نصت الوثيقة ذاتها على أن «يحصل كل مدرس في كل مراحل التعليم على تدريب يكتسب من خلاله القدرة على أن يحرك التلاميذ ويشرف على إنجازهم»<sup>2</sup>، فإذا كان المجتمع كله هو مجتمع إنجاز، فإن المدرسة نفسها تتحول - في أداء مدرسيها وإدارتها - إلى مجتمع صغير للإنجاز.

### 3 - التبادلية والاحترام

تقوم الحياة الاجتماعية على التبادلية Reciprocity والاحترام، فكل شخص يعطي الآخرين ويأخذ منهم، ولا يمتلك أيّ منهم حيزاً أكبر من الآخر إلا في ضوء معيار الجدارة والاستحقاق. ولذلك يعرف الباحثون التبادلية بأنها إتاحة الفرصة للتساوي في القدرات، والقوة في كل التفاعلات، ومن هنا يمكن أن تعلق الأصوات دون أن يسيطر عليها أحد؛ لأن الجميع يتساوون في حجم القوة التي يتفاعلون بها. ويتوقع

1 - Stuart Conger, «Achieving Society», Canadian Career Development Foundation. Available on line: [www.crrcanda.org/symposium](http://www.crrcanda.org/symposium).

2 - انظر المرجع السابق ص 9.



في هذه الحالة أن تكون كل الأصوات مسموعة، وألا يحجب صوت أبداً عن أن يجد لنفسه حيزاً يسمع فيه. والتبادلية هنا ليست مفهوماً مادياً يتعلق بصور التبادل المادي؛ ولكنه مفهوم ثقافي اجتماعي يؤشر على قدرة الأفراد على الأخذ والإعطاء في ضوء معايير متساوية. ولذلك فإن التبادلية لا تتضح إلا في إطار من الاحترام المتبادل، أو الإيجابية المسؤولة Responsiveness، والتي توجد عندما يميل الشخص إلى التخلي عن الأنانية الفردية، ويخلق لنفسه مساحة كافية كي يستوعب ثراء الأصوات من حوله. وهي تدعم التبادلية؛ لأنها تدفع الفرد إلى أن يتخلى عن التصورات الجامدة في عقله، وألا يفرض على الآخرين طريقة معينة في العمل، وأجندة معينة في السلوك. ثمة مساحة هنا لكل صوت، ولكل إنجاز، ولكل مبادرة، ولا أحد يسيطر على الحيز، ولكنه يصبح - بشكل دائم - حيزاً مفتوحاً أمام كل الأصوات والإمكانات<sup>1</sup>.

ويعمل النظام التعليمي الموجه بالقيم، أو النظام الشامل الذي يُعنى بتكوين الأفراد المواطنين، يعمل على غرس هذا النوع من التبادلية في السلوك، وذلك عبر ما يعتمد عليه من نظم للعدل والمساواة، وعبر الأنشطة المشتركة التي يقوم بها التلاميذ خارج الفصول. إن هذه الأنشطة تقوم على المشاركة الفعالة لكل التلاميذ بصرف النظر عن ألوأنهم وأديانهم. وتعمل هذه الطريقة في العمل وأداء النشاط على خلق قيم إضافية، وتدعيمها بجانب الإيجابية والتبادلية، وهي قيم التعاون، واحترام الآخرين، وقبول فكرة التعددية. ولعل هذه الأخيرة هي أهم

1- انظر المرجع التالي: R. F. Elmore (2005). Agency, Reciprocity, and accountability in Democratic Education. In S. Fuhrman & M. Lazerson (Eds.), *The Public Schools*. New York: Oxford University Press. PP 277- 300.



القيم التي تتدعم عبر التبادلية. فهي تزيح عن النفوس فكرة السيطرة على «الحيز»، أو استبعاد الآخرين منه، فالحيز مفتوح للجميع، وكل الأصوات تجد لنفسها تعبيراً داخله. وإذا ما قامت الأنشطة المدرسية على هذا المبدأ، فإن المدرسة تتحول إلى نموذج مثالي للحياة. ويخرج التلميذ من المدرسة والجامعة إلى المجتمع فيصبح قادراً على أن يستجيب لكل التنوعات من حوله، ولا يتقوقع داخل ذاته وثقافته الخاص، ومن ثم يتحول إلى مواطن إيجابي وفعال.

#### 4 - العمل الجماعي

يشير العمل الجماعي إلى القدرة على التعاون مع جماعة من أجل إنجاز مهمة معينة، ويؤكد علماء النفس الاجتماعي على أن المهام تنجز على نحو أكمل من خلال العمل الجماعي وليس العمل الفردي، فالعمل الجماعي يسمح بأن يضيف كل فرد خبراته وقدراته الشخصية لإنجاز المهمة. إن حل المشكلات المعقدة المحيطة بنا يتطلب تعاون أفراد عديدين لإيجاد حلول مبتكرة لهذه المشكلات؛ بل إن هذه المشكلات قد تحتاج إلى تخصصات مختلفة تجتمع سوياً للتوصل إلى إنجاز كامل للمهمة<sup>1</sup>. وفضلاً عن ذلك فإن قيمة العمل الجماعي تنمي لدى الفرد الشعور بالجماعة والتعاون معها، والعمل من أجل تحقيق الأهداف المشتركة. إن الشخص الذي يتعود على العمل في جماعة تصبح عينه على صالح المجتمع، وليس على المصالح الذاتية الخاصة به. ومن ثم فإنه يتوقع أن يعمل التعود على العمل الجماعي على تكوين أفراد اجتماعيين لديهم شعور قوي بـ«النحن» وليس «الأنا».

1 - University of South Australia, *Learning Guide: Working in Teams, Flexible Learning* Center, 2000. Available Online: [www.unisanet.unisa.edu.au/learningconnection](http://www.unisanet.unisa.edu.au/learningconnection)



ويبدو أنه كلما قوي الشعور بـ«النحن» قوي الإنجاز وتميز؛ فقد أكدت البحوث على أن التلاميذ الذين يعملون في جماعات يحققون إنجازاً دراسياً أعلى من أولئك الذين يعملون فرادى، وربما يكون ذلك راجعاً إلى المنافسة الإيجابية أو إلى التعاون الخلاق، أو راجعاً إلى ما يطلق عليه علماء ديناميات الجماعة بالتيسير الاجتماعي أو المجارة الاجتماعية. فالتلاميذ ينمون مهاراتهم بسرعة أثناء العمل في مجموعات، خاصة إذا كانت هذه المجموعات خالية من مظاهر الصراع والتنافس السلبي. ويزداد الإنجاز الجماعي داخل المجموعات الدراسية كلما كان لدى التلاميذ اتجاه إيجابي نحو العمل الجماعي. وإلى جانب زيادة التحصيل في الجانب المعرفي والأكاديمي فإن العمل الجماعي يؤدي إلى تكوين الصداقات، ويسهل العملية التعليمية، ويسهم في تطوير الأفكار المشتركة بل وتوليد الأفكار الجديدة<sup>1</sup>.

ويتدعم العمل الجماعي داخل المدرسة أو الجامعة من خلال تعاون المدرسين وإدارة المؤسسة التعليمية؛ فالإدارة الجيدة هي التي تكون قادرة على خلق تواصل فعال بين الطلاب، وبناء علاقات تقوم على الثقة والتعاون، وتنظيم العمل الجماعي وفقاً لجدول محدد، والإشراف الدقيق على أداء الطلاب، وتقويم أعمالهم بدرجات عالية من الشفافية، وتشجيع التلاميذ على تحقيق طموحاتهم وتطلعاتهم، وعدم إجبار التلاميذ على الالتحاق بجماعات لا يرغبون فيها، وتقليل عدد المجموعات بحيث يكون التواصل بينها خلافاً. إن الإدارة الحكيمة للعمل الجماعي تحول عمل الإدارة ذاته إلى نموذج لإذكاء روح الجماعة وتقليص الأناية الفردية.

1 - J. Burdett, «Making Groups Work: University Students' Perceptions», *International Education Journal*, Vol.4, No.3, 2003, PP.177 - 190.

## 5 - القيم المدنية

أجمع الفلاسفة منذ القدم على أن الإنسان حيوان اجتماعي، بمعنى أنه يميل إلى العيش في جماعة، وهو إذ يعيش مع الجماعة فإنه لا يتصارع معها، ولا يدخل معها في قتال، بل هو يسعى إلى أن يعيش داخل الجماعة في سلام. ولذلك فإن المجتمعات عبر تطورها قد طورت أساليب مدنية للعيش المشترك مثل السلام والتعاون والتسامح والعدل.

**طوّرت المجتمعات عبر مراحل تكونها أساليب مدنية للعيش المشترك مثل السلام والتعاون والتسامح والعدل. ويميل بعض الباحثين إلى اعتبار هذه القيم المدنية قيماً عمومية**

ويميل بعض الباحثين إلى اعتبار هذه القيم المدنية قيماً عمومية، بمعنى أنها قيم إنسانية عامة صالحة للعيش الإنساني في كل زمان ومكان، وهي القيم التي دعت إليها الأديان وعززتها الفلسفات الإنسانية على مر العصور. ويعني ذلك أن هناك إجماعاً عالمياً على أهمية هذا النوع من القيم لكي يتحقق السلام في المجتمع، ولكي يستطيع أفراد المجتمع تنظيم أنفسهم وفق أسس حضرية، يرتفع فيها

المجتمع على الفرد دون أن تكبل حرية هذا الأخير واستقلاليتته، ويعلو فيها صوت الضمير الجمعي والذات الكلية والهوية الجمعية.

ويتأصل هذا النوع من القيم داخل المؤسسات التربوية، وعلى رأسها التعليم، ويتحقق ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، فثمة اتجاه لدى بعض النظم التربوية والجامعات إلى إدخال مناهج دراسية متكاملة حول حقوق الإنسان، وحول التعليم المدني بحيث يحصل التلميذ / الطالب على جرعة أخلاقية تعرفه بحقوقه وواجباته من ناحية، وتنمي داخله الإحساس بالمجتمع من ناحية أخرى، كما تتبارى بعض المنظمات المدنية في التعاون مع المدارس والجامعات في تطوير ما يسمى بالتعليم المدني



Civic Education ليسهم إسهاماً فعالاً في دعم منظومة القيم الأخلاقية الاجتماعية المدنية، ومن ثم تعزيز العيش في سلام، وخلق الاستعداد لدى الأفراد للمشاركة في حياة مجتمعهم، واستخدام حقوقهم والدفاع عنها<sup>1</sup>. ومن ناحية أخرى فإن القيم المدنية يمكن أن تغرس في وجدان التلاميذ والطلاب بشكل غير مباشر عبر ما يسمى بالمنهج الخفي؛ أي توجيه بعض المناهج الدراسية خاصة في العلوم الاجتماعية واللغات إلى بث قيم التسامح واحترام الآخر والعدل والمساواة والتعاون، وذلك بشكل غير مباشر عبر النصوص والتمارين، وعبر العملية التدريسية نفسها<sup>2</sup>. وقد تغرس القيم المدنية من خلال المشاركة في الأنشطة الطلابية، في ضوء مبدأ التطوع والعمل المشترك.

وثمة علاقة واضحة بين التعليم المدني وبين غرس قيم الديمقراطية. فمن المعروف أن الديمقراطية تتأسس على قيم مدنية؛ حيث تفترض بشكل دائم أن للآخرين حقوقاً، وأن ثمة وسيلة للتعبير عن هذه الحقوق، وهي وسيلة الحوار المتسامح الذي يؤمن بالتعددية وعدم احتكار الرأي وعدم استبعاد الآخرين. إن الديمقراطية تفسح المجال أمام الجميع للتعبير عن آرائهم في إطار من الاحترام المتبادل والتعقل والتدبر العقلي - أي ليس في إطار من الفوضى - من أجل تحقيق الصالح العام للمجتمع، وتحقيق أعلى درجة من الالتزام الأخلاقي.

#### 1- انظر حول الثقافة المدنية:

T. Ehrlich, *Civic Responsibility and Higher Education*, Phoenix, Az: Oryx, press, 2000.  
C.D. Lisman, *Toward a Civil Society: Civic Literacy and Services Learning*, Westport, Conn: Bergin and Carvery. 1998.

#### 2- انظر حول المنهج الخفي في التعليم ودوره في التكوين الأخلاقي:

Henry Giroux and David Purpel, *The Hidden Curriculum and Moral Education*, Berkeley, California; Muccutchan Publishing Corporation, 1993.

وفي ضوء ذلك فإن التعليم المدني يصبح هو الأداة التي تتحقق من خلالها هذه الرؤية التعددية للحياة. إنه الطريق إلى التكوين الأخلاقي للمواطنين، وهو الأساس في تعليم قيم المواطنة الحقة.

## 6 - المواطنة والمسؤولية الاجتماعية

تنتهي كل القيم التي نوهنا عنها أنفاً إلى قيمة عليا أهم هي قيمة المواطنة والمسؤولية الاجتماعية، وتعد هذه القيم من القيم العمومية، بمعنى أنها قد ترقى إلى مستوى قيم العدل والمساواة والحرية.

إن المواطنة ليست حقاً  
يمنح من قبل الدولة؛  
ولكنها حق أصيل للبشر  
الذين يعيشون في كنف  
دولة معينة

فالمواطنة لا تتأسس فقط على علاقات قانونية بين الأفراد؛ ولكنها علاقة اجتماعية ترتبط بالأدوار التي يؤديها الأفراد، وتفاعلهم مع الآخرين ومع الدولة التي يعيشون في كنفها<sup>1</sup>. ولذلك فإن المواطنة ليست حقاً يمنح من قبل الدولة؛ ولكنها حق أصيل للبشر الذين يعيشون في كنف دولة معينة، وهي تتعلق

بعلاقاتهم وممارساتهم الحياتية، وهي الأصل في تكوين بنيه العلاقات الاجتماعية. ويمكن القول: إن المجتمعات تتقدم كلما ترسخت المواطنة كعلاقة وحق قانوني، وكلما تأسست التفاعلات بين البشر على أساس الاشتراك في «المواطنة»، وليس على أساس قبلي أو ديني أو عرقي. إن الأفراد في هذه الحالة ينصهرون في بوتقة واحدة، ويشعر كل منهم بأن لديه مسؤولية اجتماعية. ولذلك فإن مفهوم المواطنة لصيق بمفهوم

1- أحمد زايد: «المواطنة والمسؤولية الاجتماعية»: مدخل نظري، المؤتمر السنوي الحادي عشر للمسؤولية الاجتماعية والمواطنة 16-19 مايو 2009، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 2010، ص 17-44.



المسؤولية الاجتماعية التي يتزايد الاهتمام بها في عالم العولمة وما تفرضه من تحديات، والتطور الهائل في التكنولوجيا بما فيها تكنولوجيا الوراثة، وزيادة المخاطر البيئية والثقافية والاجتماعية. ويمكن النظر إلى المسؤولية الاجتماعية على أنها «الأساس الأخلاقي الذي تستند إليه المواطنة، وهي التي تدفع المواطنين إلى تبني مفهومات إيجابية، وإلى ممارسات سلوكية تتصف بالاندماج في الحياة الاجتماعية والسياسية والوعي بأهمية هذا الاندماج»<sup>1</sup>. وفي ضوء ذلك يمكن القول بأنه كلما نمت داخل الفرد والجماعة مستويات عليا للمسؤولية الاجتماعية، تعاظم الميل نحو السلوك الإيجابي؛ أي التحول من المواطنة السلبية إلى المواطنة الإيجابية.

ويلعب التعليم دوراً كبيراً في تكوين ثقافة المواطنة والمسؤولية الاجتماعية. وقد ذهب كثير من الباحثين التربويين إلى تأكيد أهمية التعليم من أجل المواطنة، أو التعليم الذي يتوجه بقيم المواطنة باعتباره نموذجاً للتعليم الأخلاقي الذي يهدف إلى تزويد التلاميذ والطلاب بالمعارف والمهارات ومظاهر الفهم المختلفة؛ بحيث يجعلهم مواطنين عارفين وعلى وعي بحقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم، ويشمل تعليم قيم المواطنة والمسؤولية الاجتماعية على معارف عديدة، تتعلق بطبيعة النظام السياسي القائم، وطبيعة الشرعية التي يستند إليها، وطبيعة العلاقة بين النظام السياسي والأفراد، والسلطات التي يقوم عليها النظام السياسي، والعلاقة بين هذه السلطات، والدستور المنظم لكل هذه العلاقات، وحقوق المواطنين وواجباتهم كما ينص عليها الدستور وكما تقرها القوانين، والتحديات التي تواجه النظام

1- انظر المرجع السابق، ص 37.

السياسي في الداخل والخارج ومسؤولية الفرد تجاه مجتمعه وتجاه الأفراد، وطبيعة القيم التي تحكم السلوك السياسي. كما يؤكد التعليم من أجل المواطنة على نقل مهارات خاصة تتصل بالقدرة على التطوع، والمشاركة، والمبادأة، ومساندة الآخرين، والدفاع عنهم خاصة الفئات الضعيفة والأكثر عرضة للمخاطر؛ كالأطفال، وكبار السن، وذوي الحاجات الخاصة. ويقوم التعليم من أجل الديمقراطية والمواطنة على فكرة التعليم عبر الممارسة؛ أي ممارسة المواطنة داخل المؤسسة التعليمية وخارجها، وذلك عبر خلق علاقات بين البيئة والمؤسسة التعليمية، يستطيع من خلالها التلاميذ والطلاب أن يشاركوا في أنشطة المجتمع المحلي، وأن يشاركوا في الخدمات التي تقدّم، وأن يتأملوها داخل الفصول الدراسية<sup>1</sup>.

### ثالثاً: آليات التكوين الأخلاقي في التعليم

إذا كانت المدارس والجامعات هي المكان الأفضل لعملية التكوين الأخلاقي - عبر اكتساب القيم الأخلاقية التي أشرنا إليها وغيرها من القيم - فإن العملية التربوية داخل المدرسة أو الجامعة يجب أن تنظم على نحو معين، وأن تلتزم قواعد ومعايير تجعلها قادرة على أداء هذه المهمة على أكمل وجه. ونحاول في هذا الجزء الختامي من المقالة أن نلقى الضوء على بعض العمليات التي يمكن أن تعين - في المدارس والجامعات على حد السواء - على عملية التكوين الأخلاقي الخلاق.

1- انظر حول التعليم من أجل المواطنة:

A. Sliwka, M. Diedrich, M.Hofar (eds.) *Citizenship Education: Theory, Research and Practice*, Wamann. 2006.



## 1 - المدرسة (الجامعة) كنموذج أخلاقي (الحوكمة الأخلاقية)

يفترض في مؤسسات تكوين الالتزام - وعلى رأسها المؤسسات التعليمية - أن تقدم نموذجاً يحتذى في تطبيق الفضائل الأخلاقية. فالمدرسة هنا يجب ألا تكتفي بتطبيق نموذج الحكم الصالح good Governance، بما فيه من شفافية ومحاسبية ونزاهة، بل يجب أن تطبق ما يمكن أن نسميه بالحكم الأخلاقي Moral Government. ولقد دعا بعض علماء الأخلاق إلى هذا النوع من الحكم في عالمنا المعاصر الذي تتحلل فيه عرى الأخلاق، ويتحول إلى عالم فوضى وعدم يقين. ويدعو هذا النوع من الحكم (أو الحوكمة) إلى العمل في ضوء مفهوم المسؤولية الأخلاقية. إن الحوكمة الأخلاقية هي الجديرة بأن تقود البشر المتعددي المشارب والرؤى إلى بر الأمان<sup>1</sup>.

وأحسب أننا بحاجة عامة إلى أن نتبنى النظم التربوية هذا النوع من الحوكمة، فتتحول المدرسة / الجامعة إلى نموذج أخلاقي يحتذى، في تطبيق مبادئ العدل وتكافؤ الفرص، وفي تطبيق التعاملات الأخلاقية الفاضلة التي تكشف عن «الإيثار» وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والعمل على إنجاز المهام المخولة إلى إدارة المدرسة والمدرسين بطريقة تقوم على الكفاءة والحدق، ومعاملة الطلاب على أنهم بشر لهم حقوق وعليهم واجبات، والامتناع عن كل صور العنف والقهر في العملية التعليمية. إن المدرسة / الجامعة تتحول عبر إعلاء هذه الفضائل إلى مكان نموذجي للتطبيق. إن هذا النموذج الأخلاقي في الحكم يعمل ليس

1- Scott D.N. Cook «Autonomy Interdependence and moral Governance», *American Behavioral Scientist*, vol.38. spt.1994, PP.153-171.



فقط على تقديم نموذج مثالي في الحكم؛ ولكنه يؤدي بشكل غير مباشر إلى دعم عملية التعليم الأخلاقي، فالتلاميذ يتعلمون بشكل مباشر وغير مباشر كيف يتجسد النموذج الأخلاقي على أرض الواقع. وينظر بعض التربويين إلى هذا النمط من الحكم الأخلاقي داخل المدرسة على أنه يحول المدرسة / الجامعة إلى شيء أشبه بالمعمل الذي يسهم في تعليم الديمقراطية والأخلاق<sup>1</sup>.

## 2 - الأخلاق بين المنهج الخفي والظاهر

ربما يكون تدريس القيم الأخلاقية - بما تحويه من ثقافة مدنية، وقيم للمواطنة، والالتزام الأخلاقي أو المسؤولية الأخلاقية - أحد الآليات المهمة في التكوين الأخلاقي للطلاب. ولقد أشرنا إلى هذا الأمر على عجالة فيما سبق، ونميل هنا إلى أن ننظر إلى القضية من وجهة نظر الآليات التي من خلالها تغرس القيم الأخلاقية في نفوس الطلاب؛ ففي كثير من بلدان العالم التي اتجهت إلى أنماط مستحدثة من التعليم - كالتعليم الموجه بالأخلاق، أو التعليم الشامل، أو التعليم الموجه بالمواطنة - تتجه إلى تدريس مقررات حول حقوق الإنسان، والثقافة المدنية، وثقافة المواطنة، كما تتجه من ناحية أخرى إلى تضمين المناهج التعليمية بعض الأبعاد القيمية والأخلاقية على نحو مباشر؛ بحيث تصبح المناهج التعليمية محملة بالمضامين الأخلاقية. وفي كل الأحوال فإن عملية نقل القيم الأخلاقية عبر التعليم تتطلب بعض الشروط من أهمها مراعاة التدرج في نقل هذه القيم وفقاً لمراحل النمو المختلفة؛ فكل مرحلة عمرية من مراحل النمو يمكن أن تتلاءم مع نوعية

1- انظر حول الإدارة الديمقراطية والأخلاقية:

F. C. Clark, Moral Education, Greenwood Publishing Group, 2008. P. 128.



معينة من القيم. ويعمل النظام التعليمي على بناء المناهج الدراسية للمراحل المختلفة وفقاً لهذا التدرج. وعلى سبيل المثال فإن الحديث عن حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل، يمكن أن تأتي في مراحل تعليمية متقدمة كالتعليم الثانوي أو الجامعي. أما الحديث عن العدل أو المساواة في الفرص فيمكن الإشارة إليه أو تضمينه المناهج الدراسية على نحو غير مباشر في مراحل عمرية مبكرة. فعملية النمو للفرد يصاحبها دائماً عملية نمو للتفكير الأخلاقي، إلى درجة أن بعض الباحثين في علم نفس النمو قد قسموا مراحل النمو التي يمر بها الفرد إلى مراحل نمو أخلاقي، وحددوا المرحلة التي يكن أن يبدأ منها التفكير الأخلاقي. صحيح أن الفرد قادر على أن ينمي تفكيره الأخلاقي كلما تقدّم عبر مراحل النمو، وأنه أقدر على ذلك في المراحل الأعلى من النمو؛ وذلك بسبب مستوى التباين والتكامل في الأبنية العقلية لديه، ومع ذلك فإن هناك دائماً مرحلة أطلق عليها الباحثون المرحلة المثالية Modal stage، وأكدوا على أن الفرد يكون أقدر على التفكير الأخلاقي بشكل أفضل بعد تعديده لهذه المرحلة<sup>1</sup>. ولسنا هنا في معرض الحديث عن مراحل النمو؛ وإنما لنؤكد حقيقة هامة في عمليات التكوين الأخلاقي، وهي أهمية أن تراعي المناهج التعليمية المرحلة العمرية التي يمر بها الطفل أو الشاب أثناء خضوعه للتكوين الأخلاقي.

### 3 - المنتورية عوضاً عن القهر

وقد نشير في نهاية هذه الأمثلة التي نقدمها لأليات التكوين الأخلاقي إلى الأخلاقية المنتورية في عملية التعليم؛ فقد أشار بعض

1 - Theo Dawson, «Moral Education: A Review of Constructivist Theory Research». P.3-4. Available Online: [www. Devtestservice.org](http://www.Devtestservice.org).

الباحثين إلى المنتورية Monitorism على أنها عامل هام في دفع العملية الإبداعية وفي تفجير الطاقات الخلاقة، وخلق تواصل علمي صحي بين الماضي والحاضر<sup>1</sup>. وتؤسس العلاقة المنتورية في النظام التعليمي على نمط من التواصل بين الأستاذ والطالب، يقوم فيه الأستاذ بدور المحرك أو النموذج الذي يستلهمه الطلاب، ويسيرون عليه، بحيث يتحقق لكل منهما - الأستاذ والطالب - النمو العلمي المستمر، وهو نمو يتدعم من خلال التحدي العلمي المتبادل والنقد الدائم للذات والتصحيح الدائم للمسار لتحقيق أعلى درجات الكفاءة العلمية<sup>2</sup>. وأحسب أن هذا النوع من العلاقة هو علاقة أخلاقية، يستطيع التلميذ من خلالها أن يتعلم الحرية والمساواة والعدل واحترام الآخرين والنقد الذاتي البناء، والعمل الجاد، والتنافس الخلاق، والقدرة على تحمل التعددية. لا بل إن هذه العلاقة إذا ما أصبحت علاقة في التنشئة العلمية فإنها تمكّن من تجاوز العلاقات المنحرفة التي تقوم على القهر أو الاستذلال والخضوع الأعمى. فمثل هذه العلاقات المنحرفة قد تغرس في الطلاب نزوعاً نحو الاغتراب ورفض المجتمع، وتكوين طموحات غير أخلاقية (تصبح غاية الطموح أن يمتلك الإنسان أداة قهر). وفي ضوء ذلك يمكن القول: إنه كلما نمت العلاقات المنتورية بين الأساتذة وطلابهم كلما أصبح الأساتذة قادرين على أن يسهموا إسهاماً خلاقاً في تكوين طلابهم تكويناً أخلاقياً صحيحاً.

- 1- مصري حنورة، العلاقة المنتورية بين الطلاب في التعليم. الماجستير والدكتوراه، النتائج الميدانية، بحث غير منشور.
- 2- أحمد زايد: «المعرفة والسلطة نحو نمو أخلاقي للتنشئة العلمية»، تحرير: ناهد صالح، مؤتمر أخلاقيات البحث العلمي الاجتماعي، 16-18 أكتوبر 1995م، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ص 229-249، ص 234-235.